مجلة أنساق للفنون والآداب والعلوم الإنسانية
الوسائط الفنّية والخطاب الموسيقي – نحو تحديد العلاقة بين الأبعاد التقنية والرمزية والفنية والجمالية
٢٠٢٥ (٤٣-٥٧)

طرق تصنيف الموسيقى حسب تأثيرها لغايات علاجية

This work is licensed under a Creative Commons Attribution-NonCommercial 4.0 International License.

د. عماد الزواري

مساعد تعليم عالي، المعهد العالي للموسيقى بصفاقس، LARIDIAME،

جامعة صفاقس، تونس.

نشر إلكترونياً بتاريخ: ٢٨ مارس ٢٠٢٥م

الملخص

تتناول هذه الدراسة تطوّر العلاج بالموسيقى بوصفه فرعًا من فروع العلاج بالفن، الذي شهد تحولًا كبيرًا في العقود الأخيرة، مدفوعًا بالتقدّم التكنولوجي والوسائط الرقمية التي ساهمت في تطوير استخدامه. يُعَدّ العلاج بالموسيقى من الوسائل الفعّالة في التأثير على الحالة النفسية، وقد تنوّعت أساليبه وتقنياته، ومن أبرزها العلاج بالموسيقى التقبّلي، الذي تعتمد عليه طريقة بوني للخيال الموجّه بالموسيقى.

هذه الطريقة العلاجية مستلهمة من نظريات الطب النفسي وتعتمد على الاستماع إلى مقاطع موسيقية مختارة أثناء حالة من الاسترخاء العميق، حيث تلعب الموسيقى دور المحفّز لاستدعاء الصور الذهنية والذكريات الكامنة، مما يفتح المجال أمام عمليات نفسية أعمق تساعد في تحقيق التغيير العاطفي والمعرفي يتخلل كل ذلك حوار مع المعالج النفسي الذي يوجه عملية التخيل. غير أن نجاح هذه الطريقة يستوجب تصنيف الموسيقى المستخدمة وفقًا لتأثيراتها النفسية والعاطفية، مما يثير تساؤلات جوهرية حول إمكانية وضع معايير دقيقة لتحديد تلك التأثيرات.

في هذا السياق، ظهرت أدوات تصنيفية تهدف إلى تسهيل استخدام الموسيقى في العلاج، من أبرزها "عجلة المزاج"، التي تُقسّم التجربة الموسيقية إلى تسعة أنماط انفعالية مختلفة، و"مصفوفة تصنيف الموسيقى"، التي تفرز الأعمال الموسيقية إلى ثلاث فئات رئيسية: موسيقى الدعم، موسيقى المزج بين الدعم والتعقيد، وموسيقى التعقيد، مع مراعاة التدرّج داخل كل فئة وفق مستويات الشدة العاطفية.

سنسعى في هذا الطرح إلى تحليل هذه الأدوات التصنيفية واستعراض تطبيقاتها في العلاج بالموسيقى، مع الحديث في الجزء الأخير حول إمكانية توظيفها في تصنيف الموسيقى العربية. فكما تم تصنيف الموسيقى الكلاسيكية الغربية وفق تأثيراتها النفسية، تبرز الحاجة إلى دراسة الموسيقى العربية وفق المنهجيات ذاتها مع مراعاة الخصوصيات الموسيقية والثقافية لهذه المجتمعات، مما قد يفتح آفاقًا جديدة

لاستخدامها في العلاج النفسي وتعزيز الوعي بأهميتها في السياقات العلاجية داخل المجتمعات العربية.

الكلمات المفتاحية: تأثير الموسيقى، تصنيف الموسيقى، ميديولوجيا الموسيقى.

ABSTRACT

This study explores the development of music therapy as a branch of art therapy, which has undergone significant transformation in recent decades, driven by technological advancements and digital media that have contributed to its expanded application. Music therapy is recognized as an effective tool for influencing psychological well-being, with various approaches and techniques emerging over time. Among the most notable is receptive music therapy, which serves as the foundation for the Bonny Method of Guided Imagery and Music (GIM).

This therapeutic approach is inspired by psychiatric theories and relies on listening to selected pieces of music in a deep state of relaxation. Music acts as a catalyst for evoking mental imagery and resurfacing latent memories, facilitating profound psychological processes that contribute to emotional and cognitive transformation. Throughout the session, a therapist guides the imagery process through dialogue and interaction. However, the effectiveness of this method depends on the classification of the music used based on its psychological and emotional effects, raising fundamental questions about the feasibility of establishing precise criteria for determining these effects.

In this context, classification tools have emerged to facilitate the therapeutic use of music. Among the most prominent are the "Mood Wheel," which categorizes the musical experience into nine distinct emotional states, and the "Music Classification Matrix," which divides musical pieces into three main categories: supportive music, music blending support and complexity, and complex music. Each category follows a gradual progression in terms of emotional intensity.

This article aims to analyze these classification tools and examine their applications in music therapy, with a focus on their potential use in classifying Arabic music. Just as Western classical music has been categorized according to its psychological effects, there is a growing need to study Arabic music using similar methodologies while considering the musical and cultural specificities of these communities. Such an approach may open new avenues for utilizing Arabic music in therapeutic settings and enhance awareness of its significance in

psychological healing within Arabic-speaking societies.
Keywords: Music effect, music classification, music medialogy.

*** المقدمة**

ارتبطت الممارسة الثقافية والفنية في عصرنا بالتقنية والتكنولوجيا فأعطى هذا الارتباط عدة وسائل أو وسائط نستعملها في نقل هذه الممارسة الفنية أو حفظها.

لم يقتصر دور الوسائط في النقل والحفظ فقط بل شمل أيضا تحليل الخطاب الفني عبر استغلال التكنولوجيات الحديثة في تحليل وتفكيك العلامات الرمزية والسيميائية، ومن هنا جاء مصطلح "الميديولوجيا" الذي يشمل كل ما له علاقة بهاته الوسائل من حيث الحفظ والنقل أو التحليل.

هل يمكن بعد كل ما تقدم إذن توسيع دور هاته الوسائط الفنية ليشمل استغلالها في العلاج بالفن وفي العلاج بالموسيقى تحديدا؟

هل يمكن استغلال الوسائط الفنية في تحليل الخطاب الموسيقي عبر تحديد العلاقة بين الأبعاد التقنيّة والعلامات الرّمزيّة والفنيّة والجماليّة؟ هل يمكن تحليل الخطاب الموسيقي باعتماد الوسائط الموسيقية المألوفة من ناحية، والمناهج التحليلية المتبعة في العلوم الموسيقية مثل التحليل البنيوي والتحليل السيميولوجي والتحليل الرقمي بواسطة البرمجيات الإعلامية؟ وأخيرا هل يمكن الربط بين هذه العناصر ودلالاتها وبين نظريات التحليل النفسي وطرق العلاج النفسي؟

سنحاول من خلال هذا الربط إذن معرفة التأثير النفسي للخطاب الموسيقي تمهيدا لاستغلاله لغايات علاجية نفسية. لهذا السبب لا بد من إيجاد طريقة نصنف من خلالها الأعمال الموسيقية حسب دلالاتها النفسية.

فتصنيف الموسيقى يتم عادة حسب الجنس أو العائلة فنقول مثلا: عمل موسيقي ينتمي إلى الموسيقى الكلاسيكية أو الشعبية أو المالوف... كما يكون الانتماء حسب القالب فنقول مثلا: عمل موسيقي ينتمي إلى قالب السوناتا أو الكونشرتو أو السماعي.

ولكن ماذا لو ابتكرنا تصنيفا جديدا يعتمد على نوع التأثير النفسي الذي يُحدثه العمل الموسيقي على المتلقي؟ هل يمكن بالتالي تصنيف الموسيقى إلى عائلات نفسية أو تأثيرية خلافا للتصنيفات المألوفة؟ ماهي الوسائل المعتمدة في هذا التصنيف إن كان الغرض من ذلك هو استعمال الموسيقى لغايات علاجية؟

سنتحدث في هذا المقال على بعض الوسائط الموظفة في التداوي بالموسيقى وتحديدا في إحدى أشهر الطرق المستعملة في العلاج بالموسيقى التقبلي التي يُطلق عليها: "طريقة الخيال الموجّه والموسيقى" (Guided Imagery and Music)، وهي باختصار طريقة علاجية تحويليّة (transformative therapy) تعتمد على الموسيقى أين يستمع المتلقي إلى قطع من الموسيقى الكلاسيكية وهو في حالة استرخاء. تلعب الموسيقى دور المحفز للصور والذكريات والصور المدفونة في الوعي فتدفعها إلى التحول والظهور (Vaillancourt, 2012, p2).

تتكون هذه الطريقة من مقاطع موسيقية متنوعة حسب نوع التأثير الذي يريد المعالج إيصاله، وبطبيعة الحال يكون للمعالج بنك من الأعمال الجاهزة والمصنفة مسبقا.

سنتحدث هنا عن ثلاث وسائل يتم استعمالها في تحديد صنف الموسيقى ليتسنى اختيار الموسيقى المناسبة هي:-

"عجلة المزاج" (Mood Wheel) ، " قياس الكثافة العاطفية" MIA(Affect Intensity Measure) بعدها توضع الموسيقى حسب خصائصها في مصفوفة تسمى "مصفوفة الموسيقى" (matrix of music) مع الاستشهاد بدراسات عالمية أجريت في هذا المجال مع شرح للوسائل التقنية المستعملة.

سنقسم هذا العمل إلى محورين رئيسيين: -

١- وسائل تصنيف الموسيقى، وسنتناول فيه الوسائل التقنية المعاصرة في تصنيف الموسيقى والنظريات العالمية.

٢- تطبيق التصنيف في العمل السريري من الدراسات العالمية، سنخصصه للحديث عن بعض الدراسات العالمية التطبيقية حول تصنيف الموسيقى واستعمالها.

أما المحور الثالث: تطبيق التصنيف على نموذج موسيقي عربي، سنحاول فيه تطبيق نظريات التصنيف على قطعة موسيقية للموسيقار إلياس الرحباني.

*** وسائل تصنيف الموسيقى**

تُصنف الموسيقى حسب أغلب الدراسات المطّلع عليها عبر تقنيتين رئيسيتين (Fuglestad, 2017, p1) هما: -

١- "عجلة المزاج لهافنر وتصنيف الموسيقى" (Hevner's Mood Wheel and the taxonomy of music)

٢- "قياس الكثافة العاطفية" MIA (Affect Intensity Measure)

يتم بعد ذلك استعمال "مصفوفة الموسيقى" (Music Matrix)حيث يتم اختيار الموسيقى حسب احتياجات المتلقي العلاجية وحسب طاقته إذ تتكون المصفوفة من ثلاثة أصناف موسيقية متدرجة حسب درجة كثافتها (Wärja, Bonde, 2014, p16).

١- عجلة المزاج: بدأ تصنيف الموسيقى حسب التأثير النفسي بطريقة علمية منذ بدايات القرن العشرين مع "كايت هافنر" التي ابتكرت بعد سنوات من التجارب السريرية على المرضى تصنيفا للأمزجة المختلفة التي يمكن للموسيقى المسجلة أن تحدثها في المتلقي (Hevner, 1937, p249). يتمثل التصنيف في قائمة تحوي ثمانية أصناف للأمزجة سميت ب: "عجلة المزاج لهافنر" (Hevner Mood Wheel).

جمعت "هافنر" الأمزجة القريبة في عائلات مختلفة بحيث يعبّر العمل الموسيقي المسموع على عائلة مزاجية معينة أو أحيانا على مجموعة من العائلات:

شكل رقم١: عجلة المزاج لهافنر

تطورت عجلة المزاج في مرحلة لاحقة إذ أضيفت عائلة جديدة تحمل معاني: الحيوية والطاقة، الوضوح،

الانفتاح، التشجيع، وأخذت مكان العائلة رقم ٧، بعد أن تطورت طريقة بوني لتحوي أصنافا موسيقية أخرى إضافة للموسيقى الكلاسيكية (Wigram, et al, 2002,p59).

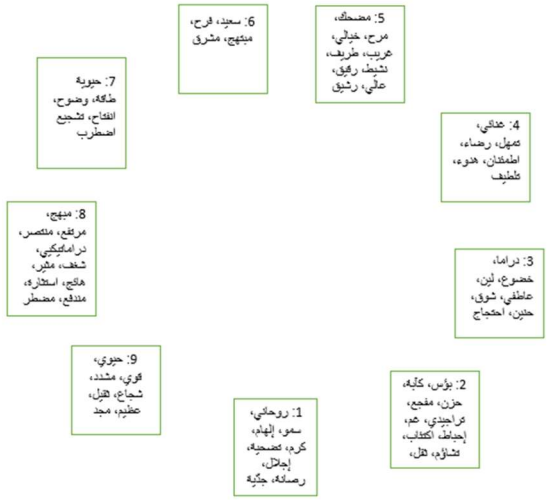

شكل رقم٢: عجلة المزاج المطوّرة

٢- قياس الكثافة العاطفية: ابتكرت "بوني" بداية مصطلح "المحيط العاطفي" (affective contour) الذي يتمحور حوله اختيار النماذج الموسيقية عند إعداد برنامج علاجي موسيقي. إذ يتم تحليل النماذج الموسيقية بواسطة الصور البيانية التي تعطينا فكرة على التغييرات الديناميكية والشدة داخل المثال الموسيقي مع الاهتمام بالعناصر المكونة للموسيقى مثل: الارتفاع، الإيقاع والنسق، اللحن، الهارموني، التركيبة الآلية (Bonde, 2010, pp89-118). ثم تطور المصطلح ليصبح "قياس الكثافة العاطفية" MIA (Affect Intensity Measure) أو "ملف تحليل الكثافة" (Mia) intensity profile .

*** العناصر المكونة لملف تحليل الكثافة**

لا يوجد برنامج معيّن لقياسها وإنما مجموعة من العناصر التي تحدد اختلاف الشحنات العاطفية من قطعة موسيقية إلى أخرى.

أهم هاته العناصر هي: البنية (Texture)، التوتر/ الانفراج (Tension/Release)، الحركة (Movement)، الهيكل (Structure)، المقامية (Tonal)، النغمة (Pitch)، الرمزية (Symbolic)، المزاج (Mood)، الانتماء الموسيقي (Composer's Intent) (Wärja, Bonde, p19).

العنصر:	المكونات:
البنية	اللحن والهارموني
التوتر/ الانفراج	الديناميكية وسعة الصوت
الحركة	النسق، الإيقاع، المسار
الهيكل	الصنف، الشكل، بسيط / معقّد
المقامية	الطابع، كبير / صغير، الحجم
النغمة	عالية / منخفضة، المسافات
الرمزية	صور، ذكريات
المزاج	العاطفة، الطاقة
نيّة الموسيقي	العائلة الموسيقية

جدول رقم١: العناصر المكونة لملف تحليل الكثافة

لنفهم كيفية تحليل هذه العناصر نستشهد بهذا المثال الذي أُستعمل في طريقة (GrpMI) التي سنأتي على ذكرها لاحقا.

اسم المثال: O be ye most heartily welcome للموسيقي "جاير توفيت" (Geir Tveitt)

رسم بياني ل "تحليل الكثافة" (Mia) للمثال: -

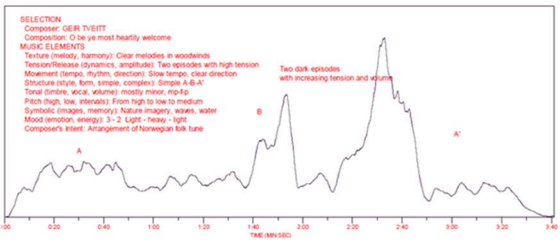

رسم بياني رقم١: "تحليل الكثافة" (Mia) لموسيقى O be ye most heartily welcome

*** العناصر الموسيقية**

١- البنية: ألحان واضحة لآلات النفخ الخشبية

٢- التوتر/ الانفراج: يوجد توتر في حلقتين

٣- الحركة: نسق بطيء مع اتجاه واضح

٤- الهيكل: تركيبة بسيطة A-B-A'

٥- المقامية: مقام صغير مع أداء رقيق في الغالب: هادئ جدا، قوي، هادئ (mp-f-p)

٦- النغمة: من عالية إلى منخفضة إلى متوسطة

٧- الرمزية: صور الطبيعة والأمواج والماء

٨- المزاج: خفيف، ثقيل، خفيف

٩- الانتماء الموسيقي: توزيع موسيقي لقطعة من التراث الشعبي النرويجية.

بعد هذا التحليل وقع تصنيف المثال ضمن خانة "موسيقى الدعم والتحدي" (سنشرحها في العنصر الموالي).

٣- المصفوفة: تُقسّم "سامر" (Summer) الموسيقى إلى نوعين رئيسيين عند اختيار البرنامج الموسيقي في طريقة "جلسات الموسيقى والخيال" music and imagery session هما: "الموسيقى الحاضنة" (music as holding) و"الموسيقى المحفّزة" (music as stimulating) فالأولى تهدف إلى الاحتواء والتهدئة بينما الثانية تهدف إلى تنشيط المشاعر أو الذهن.

ثم بالاعتماد على طريقة Wheeler النفسية القائمة على ثلاث مراحل: الدعم: إعادة التأهيل، إعادة البناء. وبعد عدة تجارب أجريت على المرضى في مختلف الأقسام الطبية وملاحظة مدى استجابتهم والصور المتخيلة عبر تلك الموسيقات تقترح "سامر ثلاثة مستويات أو أصناف (taxonomy) يتكون منها البرنامج الموسيقي اعتمادا على عناصر موسيقية أساسية مثل البنية الموسيقية، التنبؤ، التعقيد، الدينيماكية (Wheeler,1983, pp8-12):

١- موسيقى الدعم (Supportive music).

٢- موسيقى الدعم مع التحدي (Mixed supportive and challenging music).

٣- موسيقى التحدي (challenging music).

تختلف الأصناف الثلاثة عبر الخصائص الموسيقية التالية(Bonde, 2005, p396) : -

*** موسيقى الدعم**

تُستخدم الموسيقى الداعمة خاصة خلال الخمس حصص الأولى لكونها تبث شعورا بالأمان خلال حصص الاستماع.

تتميز الموسيقى الداعمة بالاستقرار وبالتنبؤ، تندرج ضمن نطاقات المزاج ٣-٤-٥-٦ حسب عجلة المزاج لهافنر، يكون الشكل الموسيقي بسيطا ونمطيا قائما على الأوستيناتو (ostinato)، تكون الصور التي تثيرها الموسيقى الداعمة سهلة واضحة وثابتة أو تتطور ببطء كالذكريات أو صور الطبيعة أو صور مجازية. في المحصلة تتيح تصورات عاطفية مريحة وآمنة.

*** موسيقى المزج بين الدعم والتحدي**

تُستخدم هاته الموسيقى لتحضير المتلقي إلى اكتشاف مناطق الصعوبة لديه والدخول في مجالات جديدة.

يبدأ النموذج الموسيقي وينتهي دائما بموسيقى الدعم بينما تتخلله مقاطع تنتمي لموسيقى التحدي بتغييرات مزاجية تشمل الفئة ٢ و٧ من عجلة المزاج لهيفنر. تشمل التغييرات أيضا الإيقاع وحجم الصوت مع زيادة للتوتر عبر الزيادة في الشدة مع استعمال أشكال أكثر تنوعا مع الأشكال الثلاثية الأكثر حماسية وأيضا الجمل المتباينة.

تثير الموسيقى المختلطة صور الذات مع التحفيز على تطويرها، كذلك المشاكل الدفينة، ويمكن استعمالها طوال فترة الحصص العلاجية، أي أن كل حصة تحتوي على

مقطع منها أو أكثر لأنها تقود إلى مجالات عاطفية أكثر صعوبة.

*** موسيقى التحدي**

تُقدم هذه الموسيقى عندما يصل المتلقي إلى درجة كبيرة من الارتياح خلال الحصص العلاجية الفردية من طريقة بوني، وتجاوب مع أنماط موسيقية مختلفة ويصبح مؤهلا للتعامل مع التحديات لعلاجية.

تمثل الموسيقى التحدّية وعاء موسيقيا للحصص العلاجية للقضايا والمشاعر الصعبة.

تكون هاته الموسيقى شديدة الكثافة وقوية، وأيضا درامية، وتشمل الأمزجة ٧-٨-١-٢ من عجلة المزاج لهيفنر مما يحفز المتلقي على مواجهة المشاكل واستكشاف الأزمات العاطفية.

تكون أشكال الموسيقى تطورية مثل قالب السوناتا وتحوي عدة تباينات في المكونات الموسيقية.

توضح الأشكال البيانية الثلاثة التالية الفرق في الكثافة العاطفية بين الأصناف الموسيقية الثلاثة الأساسية المكونة للمصفوفة الموسيقة (matrix of music).

يمثل المحور x الوقت أي المدة الزمنية بينما يمثل المحور y الشدة في سلم من (٠ إلى ٥).

تمتد موسيقى الدعم لدقائق قليلة بينما تستغرق موسيقى المزج وموسيقى التحدي زمنا أطولا.

تحوي الموسيقى المختلطة مقاطع بشدة مرتفعة أكثر من موسيقى الدعم (+٤) بينما تصل الشدة في موسيقى التحدي إلى أعلى المستويات من السلم (Wärja, Bonde, pp7-8).

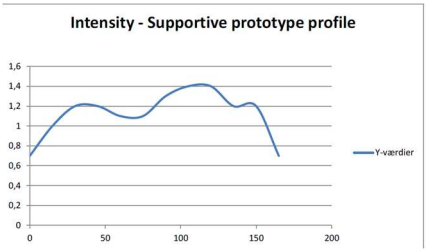

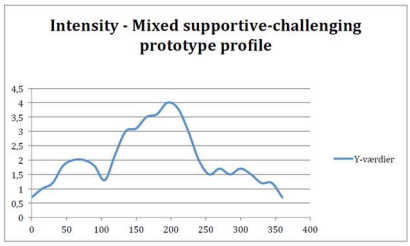

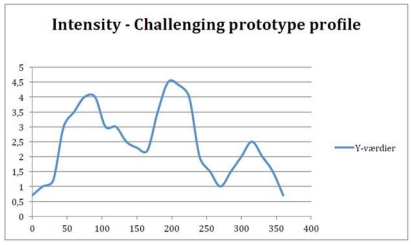

رسم بياني رقم٢: الكثافة العاطفية للثلاثة أصناف موسيقية

لدراسة المصفوفة بشكل أوسع نلاحظ أن كل صنف موسيقي من الأصناف الثلاثة الرئيسية يتكون من ثلاثة أصناف أو مراحل فرعية (Wärja, Bonde, pp9-12).

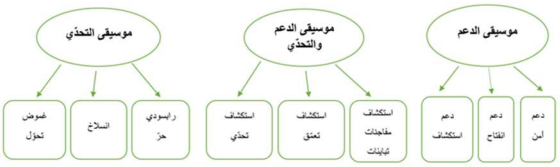

شكل رقم٣: الأصناف الموسيقية مع فروعها

*** موسيقى الدعم**

هدفها الأساسي توفير الأمان والاحتواء. بها ثلاث مراحل هي: -

١- المجال الداعم والآمن (supportive and safe field).

٢- المجال الداعم والمنفتح (Supportive and opening field).

٣- المجال الداعم والاستكشافي (Supportive and exploring field).

المرحلة	الخصوصيات الموسيقية	أمثلة موسيقية
المجال الداعم والأمن	موسيقى موثوقة، يمكن التنبؤ بها وخالية من المفاجئات، عادة بآلة منفردة أو تصاحبها آلة أو اثنان للدعم.	Stefan Nilsson : Wilmas Tema, Jan Johansson : Bandura
المجال الداعم والمنفتح	موسيقى تتميز بالحوار بين الآلات، يمكن أن يوجد أكثر من آلة وأكثر من موضوع.	Steve Dobrogosz: *Mass and Chamber Music*, Nr 13, Benny Anderssons orkester: *Sånger från andra våningen (Songs from the Second Etage)*
المجال الداعم والاستكشافي	موسيقى تحوي بعض التوتر الديناميكي، تصاعدات وانخفاضات متدرجة في الصوت، بعض التوترات التناغمية، اختلاف في الأصوات، أكثر تعقيد.	Secret Garden: *Papillon*, Beethoven: *Piano Concerto no 5*, Adagio

جدول رقم٢: مراحل موسيقى الدعم مع أمثلة موسيقية

تتميز موسيقى الدعم كما نلاحظ من خلال دراسة مختلف أجزائها بكونها موسيقى خالية من المفاجئات، إيقاع منتظم، التطور اللحني والهارموني واضح ومتوقع، المقاطع كلها آلية مع احتمال استعمال موسيقى غنائية أو الغناء على شرط أن يكون بلغة أجنبية غير مفهومة لأن الكلمات تؤثر على التخيل. مجازيا هو الاستسلام للعناق الموسيقي. الهدف من هذه المرحلة هو الارتياح والذوبان مع الموسيقى. يتم اختيار المقاطع حسب جماليتها وانتمائها الى الأمزجة الخفيفة حسب عجلة المزاج لهافنر.

*** موسيقى المزج بين الدعم والتحدي**

الهدف الرئيسي هو استكشاف آفاق جديدة والإحساس بمشاعر أكثر صعوبة وتحوي ثلاث مراحل هي:-

١- مرحلة الاستكشاف مع المفاجئات والتباينات (field with surprises and contrasts explorative).

٢- مرحلة الاستكشاف مع التعمق (The explorative and deepening field).

٣- مرحلة الاستكشاف والتحدي (The explorative and challenging field):

المرحلة	الخصوصيات الموسيقية	أمثلة موسيقية
الاستكشاف مع المفاجئات والتباينات	تكون الموسيقى غير مألوفة مع مفاجئات على مستوى اللحن والهارمونيا والتركيبة الآلية، تحوي الموسيقى على الأقل مفاجأة كبيرة مع توتر هارموني معتدل.	Bach: Shepherd Song. Respighi: Gianicola
الاستكشاف مع التعمق	تقود الموسيقى المتلقي إلى حالة مزاجية معينة مع إيقائه عليها. يُستعمل المقام الصغير مع لحن مكثف يعبر على أجواء مظلمة.	Bach: *Mein Jesu*, Elgar: Sospiri, Mendelssohn: *5th symphony*, Andante
الاستكشاف والتحدي	تحوي الموسيقى بعض التناقضات والمفاجئات مع درجة كبيرة من التوتر اللحني والهارموني. تبدأ القطعة وتنتهي بطابع هادئ وناعم لتحقيق التوازن.	Bach: *Little fugue in g*, Debussy: *Sirenes*, Brahms: *Violin Concerto*, 2nd movement, Tveitt: *O be ye most heartly welcome*

جدول رقم٣: مراحل موسيقى الدعم والتحدي مع أمثلة موسيقية

تتميز موسيقى المزج بعدم التوقع وبالمفاجئات وبالتغييرات على مستوى الإيقاع والسرعة واللحن والهارمونيا. لمقاطع كلها آلية مع استعمال الصوت إذا كان بلغة غير مفهومة للمتلقي. تنتمي الشدة والتوتر الى الأمزجة المظلمة لعجلة المزاج لهافنر.

بمعنى مجازي، تقدم هذه الموسيقى حالات "غير-أنا" (not-me) وحلقات قصيرة من الكثافة العالية والتوتر، بما في ذلك الفئات الأكثر ظلمة في عجلة المزاج.

*** موسيقى التحدي**

هدفها دفع المتلقي الى استكشاف مناطق جديدة غامضة وأيضا مخيفة من الوعي، تحوي أيضا ثلاث مراحل رئيسية: -

١- المجال الرابسودي أو الحر (The rhapsodic field).

٢- مجال الانسلاخ (The field of metamorphosis).

٣- مجال الغموض والتحوّل (The field of mystery and transformation).

المرحلة	الخصوصيات الموسيقية	أمثلة موسيقية
المجال الرابسودي	تكون الموسيقى عادة مجموعة من الأفكار غير المترابطة جيدا أو غير مترابطة مع تنوع في المزاج والإيقاع والسرعة والجرس مع وجود الجمل المعقدة والمرتجلة.	Bach: *Toccata and fugue in d*, Wagner: *Siegfried's Funeral March*, Copland: *Appalachian Spring*, excerpt
مجال الانسلاخ	تكون الموسيقى في شكل أفكار رئيسية يتم التنويع في تنفيذها من حيث الشكل والديناميكية والجرس والنسق ويمكن تحويلها إلى أفكار مختلفة تماما عن الفكرة الرئيسية.	Bach/Stokowski: *Passacaglia and fugue in d*, Ives: *The Unanswered Question*, Shostakovich: *5th symphony*, excerpt
مجال الغموض والتحول	تكون عادة موسيقى تحت المتلقي على الوصف والتعبير وتسهيل حالات الوعي المتحولة أو العاصفة. يكون النسق بطيئا والجو مظلما وكئيبا ومهيبا.	Bach: *Crucifixus*, Rachmaninov: *Isle of the Dead*, Gorecki: 3rd symphony, 2nd movement, Mahler: *Das Liede von der Erde*. Der Abscheid, excerpt

جدول رقم٤: مراحل موسيقى التحدي مع أمثلة موسيقية

تتميز موسيقى التحدي بالخصوصيات التالية: –

١– غير قابلة للتنبؤ، تحوي عديد التحديات (تغييرات في الايقاعات والنسق، تحولات مفاجئة في الجو المزاجي، درجات عالية من التوتر اللحني والهارموني).

٢– تكون القطع آلية كالعادة مع إمكانية استعمال الصوت على شرط استعمال لغة غير مفهومة. مجازيا تمثل هذه الموسيقى حالة "غير أنا" (not–me) وتطورها.

٣– من حيث الشدة والتوتر تحوي مقاطع كثيفة من هاته الصفات مع الأمزجة الأكثر ظلمة من عجلة المزاج لهافنر.

*** تطبيق التصنيف في العمل السريري من الدراسات العالمية**

طُبّق التصنيف في عدة تجارب سريرية استعملت طريقة العلاج الموجه والموسيقى بمختلف فروعها، سنستشهد بثلاث تجارب منها: –

١– الطريقة الأولى يطلق عليها: "رحلة موسيقية قصيرة" (Brief Music Journey) بعبارة مختصرة (KMR) وهي طريقة متفرعة من "طريقة الخيال الموجه والموسيقى" طُبّقت على مجموعة من مرضى السرطان (Wärja, Bonde, p13).

بالنسبة لطريقة (KMR) يتم الاكتفاء بمرحلة "موسيقى الدعم" فقط حسب مصفوفة الموسيقى.

تمت التجربة على مريضة بسرطان الرحم خضعت إلى خمس عشرة حصة علاجية في كل حصة يتم اختيار مقطع موسيقي يتناسب مع حالتها النفسية ومع الصور المُراد استثارتها.

٢– الطريقة الثانية يطلق عليها: "مجموعة الموسيقى والخيال" (Group Music and Imagery) بعبارة مختصرة (GrpMI) وهي أيضا متفرعة من طريقة "الخيال الموجه والموسيقى" طُبقت على مجموعة تنتمي إلى قسم الطب النفسي (Wärja, Bonde, p13).

بالنسبة لطريقة (GrpMI) يتم الاكتفاء بصنف أو مرحلة "موسيقى الدعم والتحدي" حسب مصفوفة الموسيقى.

فيما يلي بعض النماذج الموسيقية المنتمية إلى صنف "موسيقى الدعم والتحدي" المستعملة أثناء حصص "مجموعة الموسيقى والخيال": –

Bach: Adagio in C (Baroque/Romantic) 5.12
Beethoven: Violin Concerto No.2 (Romantic) 10.13
Boccherini: Cello Concerto No. 2 (Classical) 5.53
Brahms: Violin Concerto No. 2 (Romantic) 8.56
Brahms: Piano Concerto No.2, 2nd movement (Romantic) 11.45
Brahms: Double Concerto No.2 (Romantic) 12.19
Britten: Sentimental Saraband (Romantic/20th century) 6.37
Copland: Corral Nocturne (20th century) 3.49
Elgar: Enigma Variations No.8+9 (Romantic) 5.38
Liadov: The Enchanted Lake (Impressionistic) 7.58
Picker: Old and Lost Rivers (20th century) 6.35
Ravel: Piano Concerto No.2 (20th century) 7.00
Ravel: Dahpnis & Chloë (excerpt) (Impressionistic) 7.15
Respighi: Gianicola (Impressionistic) 6.20
Shostakovich. Piano Concerto No.2, 2nd movement (20th century) 6.37
Villa-Lobos: Bachianas Brasileiras #5 (20th century) 6.41

أما التجربة الثالثة فكانت بالطريقة الأصليّة أي طريقة "الخيال الموجّه والموسيقى"، أُجريت على مجموعة من المتلقين بمحتوى موسيقى ينتمي إلى الصنف الأول والثاني من مصفوفة الموسيقى أي "موسيقى الدعم" و "موسيقى الدعم والتحدي" حيث تم تحليل البرنامج الموسيقي حسب "ملف الكثافة" ومن ثم تصنيفه في المستوى المناسب (Fuglestad, pp 5–9).

يوضح الرسم التالي تحليلا لبرنامج موسيقي أُستعمل في الحصص العلاجية متكون من سبع قطع موسيقية تظهر تنوعا واضحا بينها حسب قياس ملف الكثافة:

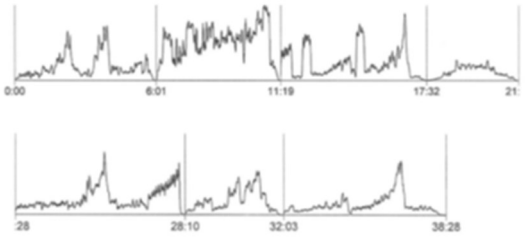

رسم بياني رقم٣: الكثافة العاطفية للقطع المكونة للبرنامج

تم إذن اختيار البرنامج بعد تحليل عاطفي لكل قطعة موسيقية ومن ثم تصنيفها حسب مصفوفة الموسيقى.

لمزيد فهم طريقة التحليل والتصنيف نقدم هذا المثال الموسيقي (الأول من اليسار في الرسم السابق): –

اسم المثال: "Mercy Street"

تحليل الكثافة:

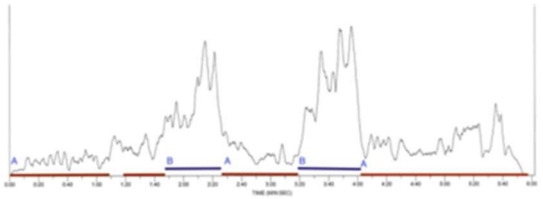

رسم بياني رقم٤: الكثافة العاطفية لقطعة "Mercy Street "

تخلق هذه المقطوعة جوا مفتوحا مشرقا وخفيفا حيث يمنح الأوستاناتو الإيقاعي والعزف الفردي للفلوت المصحوب بخلفية مستقرة للباص في الفكرة الأولى (A) (باللون الأحمر في الرسم) إحساس المساحة والأمان للمتلقي ليبدأ رحلة المَشاهد.

بعدها تأتي الفكرة الثانية (B) (باللون الأزرق في الرسم) تؤديها آلات النفخ الخشبية والنحاسية وأيضا الوتريات بخطوط لحنية أطول تبث أحساس التهدئة وفي نفس الوقت الظلمة.

رغم التباين الديناميكي الواضح بين الفكرتين (A) و(B) إلا أن المقطوعة بصفة عامة آمنة ومنفتحة ومتوازنة بفضل تكرار الباص.

جاءت الفكرة الأخف (A) في مقام "دو دييز" صغير أدته الفلوت في المقدمة مع مزاج حالم هادئ حنين (الفئة ٣ و٤ من عجلة المزاج). أما الفكرة (B) الموحية بالقوة والظلمة والكآبة (الفئة ٢ من عجلة المزاج) مع شعور بالدفع الخفيف إلى الأمام فجاءت في مقام مي كبير.

يُصنّف هذا المثال الموسيقي إذن بعد كل ما تقدّم ضمن الفرع الثالث من "موسيقى الدعم" أي "المجال الداعم والاستكشافي" حسب مصفوفة الموسيقى.

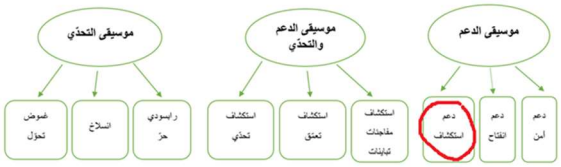

شكل رقم٤: صنف معزوفة "Mercy Street " ومكانها داخل المصفوفة

*** الاستنتاجات**

تُعتبر عملية اختيار الموسيقى أثناء حصص الاستماع لغايات علاجية مهمة معقدة فهي تخضع إلى: –

١– ضرورة ملائمة الخصوصيات الموسيقية مع الحالة السريرية للمتلقي ولهذا السبب وجب إخضاع النماذج الموسيقية إلى تحليل موسيقي وطبي يمكن تسميته "تحليل عاطفي" قبل استعمالها.

٢– الهوية الصوتية لكل شخص ما يصطلح عنه مبدأ "الايزو" (iso).

تم ابتكار طريقة "تصنيف الموسيقى" (taxonomie) بعد تجارب حول الموسيقى والتخيل

استغرقت سنوات طويلة عند تطبيق طريقة "الخيال الموجه والموسيقى" (GIM) العلاجية.

سهّل تطور وسائل "تصنيف الموسيقى" وكذلك "عجلة المزاج" و"الكثافة العاطفية" مهمة اختيار النماذج الموسيقية.

نستنتج بالمحصلة أن الموازنة بين مصفوفة التصنيف وبين التقييم السريري هي المحدد الرئيسي في اختيار البرنامج الموسيقي.

وبالتالي يمكن تلخيص جوهر العملية العلاجية في المراحل التالية: –

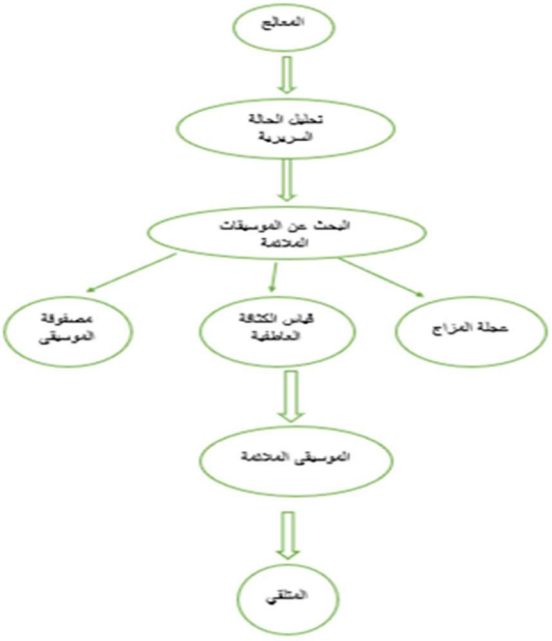

شكل رقم٥: العلاقة بين المُعالج والموسيقى والمتلقي

توجد عدة تطبيقات وبرامج رقمية متطورة يُمكن استعمالها لقياس الكثافة العاطفية بالإضافة إلى وجوب توفر المهارات اللازمة والخبرة لضمان أفر حظوظ النجاح في العملية العلاجية. ولهذا السبب من الضروري الخضوع إلى دورات تدريبية لدى معالجين محترفين إذ تتيح بعض المدارس العالمية شهادة أو ديبلوما في تصنيف الموسيقى بعد نهاية التربص.

*** تطبيق التصنيف على نموذج موسيقي عربي**

المثال هو معزوفة "دمي ودموعي وابتساماتي" للموسيقار اللبناني "إلياس الرحباني".

*** تحليل تفصيلي لمقطوعة "دمي ودموعي وابتساماتي"**

١– الشكل والبنية(Form) : –

المقطوعة تتبع بنية سردية درامية مكونة من ثلاثة أقسام: –

١– المقدمة :(Introduction) لحن هادئ وشاعري يُقدمه البيانو.

٢– التطور :(Development) يتصاعد بشكل تدريجي مع دخول الآلات الأوركسترالية.

٣– الخاتمة :(Coda) عودة للبيانو مع لمسات هادئة تنهي المقطوعة بسلام.

القصة الموسيقية: تعكس التحولات العاطفية من الحزن والتأمل إلى النشوة والتصالح الداخلي وتمثل أساسا نطاقات ٢–٣–٤ من "عجلة المزاج لهافنر".

٢– القوام الموسيقي(Texture) : –

*** القوام اللحني**

١– يبدأ البيانو منفردًا، مما يعطي القوام البسيط.

٢– تدريجيًا تُضاف الآلات الوترية لتكوين قوام أكثر تعقيدًا

٣– التفاعل بين الآلات: البيانو يظل في المقدمة طوال المقطوعة، بينما تدعم الأوركسترا الخلفية بإضافة العمق العاطفي.

٣– الإيقاع(Rhythm) : –

النمط الإيقاعي:

إيقاع هادئ ومنتظم في البداية.

يصبح أكثر حركة في القسم الأوسط، مما يعكس تصاعد التوتر العاطفي.

التكرار: يتم تكرار النمط الإيقاعي الأساسي، مما يضفي شعوراً بالاستمرارية والثبات.

٤- السرعة:(Tempo)

Adagio في البداية: لخلق إحساس بالحزن والتأمل.

Andante في التطور: يضيف شعوراً بالحركة دون إزعاج.

Ritardando في الخاتمة: يُخفف الإيقاع ليعيد المقطوعة إلى حالة من السكينة.

٥- التآلف:(Harmony)

الانسجام: يعتمد على الهارموني الغربي، مع استخدام التآلفات الكلاسيكية التي تُبرز جمال اللحن الرئيسي.

التغييرات التآلفية: التقدم الهارموني Chord) (Progressionمتدرج ويُركز على التوتر والانفراج.

٦- اللحن(Melody) : -

اللحن الرئيسي: يقدمه البيانو بأسلوب حساس وشاعري، يتكرر مع تنويعات طفيفة.

الجمل اللحنيّة: طويلة وممتدة، مما يُبرز الطابع التأملي والعاطفي.

٧- الصوتيات والديناميكيات Timbre and) Dynamics):

الصوتيات: البيانو يخلق طابعًا دافئًا وهادئًا، مدعومًا بخلفية الأوركسترا الوترية.

الديناميكيات:

Pianoو Mezzo-Pianoفي البداية.

Crescendoتدريجي للوصول إلى الذروة العاطفية.

Diminuendoفي النهاية لإعادة الشعور بالسكينة.

٨- المزاج العام:(Mood)

البداية: إحساس بالحزن والحنين.

الأوسط: تصاعد عاطفي يتسم بالأمل والدفء.

النهاية: شعور بالسلام الداخلي والتصالح.

*** تصنيف المقطوعة**

البداية الهادئة التي يُبرزها البيانو تُعد مثالية لخلق جو من الراحة والتأمل.

القسم الأوسط، حيث تزداد كثافة الآلات والتوتر العاطفي.

الذروة العاطفية، مع تصاعد الديناميكيات، تدفع المستمع إلى مواجهة مشاعره العميقة.

كل هذه الخصائص جعلتنا نصنف هذه المعزوفة ضمن صنف "موسيقى الدعم" في مصفوفة الموسيقى.

*** الخلاصة**

مقطوعة "دمي ودموعي وابتساماتي" هي مثال رائع للموسيقى التصويرية التي تروي قصة عاطفية متكاملة. تركيزها على البيانو يجعلها شخصية وشاعريّة للغاية، مما يجعلها ملائمة للاستعمال العلاجي خاصة مع حالة تتطلب "موسيقى الدعم".

*** الخاتمة**

تطورت وسائل تحليل الخطاب الموسيقي بشكل ملحوظ بفضل التقدم التكنولوجي والتطور المستمر في الوسائط الرقمية المستخدمة في دراسة الموسيقى. لقد ساهمت هذه التحولات التقنية في فتح آفاق جديدة لفهم التأثيرات النفسية والعاطفية للموسيقى، مما عزز إمكانية استخدامها في العلاج النفسي بطرق أكثر دقة وفعالية. وكما بيّنا في هذا المقال، أثبتت التجارب المعاصرة أن الوسائط الرقمية الحديثة قادرة على تحليل الخطاب الموسيقي

من منظور عاطفي ونفسي، مما يسمح بتصنيف الأعمال الموسيقية بناءً على تأثيراتها الانفعالية واستعمالها وفقًا لاحتياجات المرضى وحالاتهم النفسية المختلفة.

ورغم التقدم الذي تحقق في هذا المجال، يظل التحدي الأكبر في رأينا هو كيفية تطويع هذه الأساليب والتقنيات لاستخدامها في بيئاتنا المحلية، حيث تختلف الخصوصيات الثقافية والموسيقية عن تلك التي طُورت من أجلها التصنيفات الغربية. لتحقيق هذا الهدف، من الضروري أولًا ابتكار "عجلة مزاج "خاصة بالموسيقى العربية، تأخذ بعين الاعتبار خصائصها الإيقاعية والمقامية، إلى جانب تطوير "نظام قياس الكثافة العاطفية "المناسب لها. بعد ذلك، يمكن تصنيف الموسيقى وفق "مصفوفة التأثير العاطفي "كما شرحنا سابقًا، مما يتيح استخدامًا منهجيًا وفعّالًا لها في العلاج النفسي.

إن نجاحنا السابق في تكييف نموذج علاجي عالمي، مثل طريقة "تركيبة"U ، لبيئتنا المحلية وتطبيقه في أحد الأقسام الطبية، أثناء إعداد رسالة الدكتوراه يشجعنا على مواصلة الجهود لتطويع الوسائل الرقمية الحديثة لتصنيف الموسيقى وفق أساليب تتناسب مع ثقافتنا. غير أن هذا العمل لا يمكن أن يكون فرديًا أو مقتصرًا على المختصين في الموسيقى وحدهم، بل يستوجب تعاونًا وثيقًا بين الفريق الموسيقي والفريق الطبي لضمان تكامل الجوانب الفنية والعلاجية. إن هذا التنسيق ضروري لإنشاء قاعدة بيانات موسيقية دقيقة ومدروسة يمكن أن تشكّل مرجعًا للمختصين في العلاج بالموسيقى، مما يسهم في تطوير هذا المجال وتوسيع نطاق الاستفادة منه داخل المجتمعات العربية.

*** توصيات الدراسة**

في ضوء ما تناولته هذه الدراسة حول تصنيف الموسيقى في طريقة بوني للخيال الموجّه بالموسيقى، وأهمية استخدام الوسائط الرقمية في التحليل الموسيقي العاطفي، نرى أنه في اعتقادنا لتطوير هذا المجال وتوسيع تطبيقاته في البيئات العلاجية المحلية وجب التفكير في: –

١– إعداد قاعدة بيانات موسيقية مصنفة وفق التأثيرات العاطفية والنفسية، تعتمد على أدوات مثل "عجلة المزاج" و"مصفوفة التأثير العاطفي"، مع مراعاة خصوصيات الموسيقى العربية.

٢– الاستفادة من الذكاء الاصطناعي وتقنيات التحليل الرقمي في دراسة الاستجابات العاطفية للموسيقى، مما يساعد في بناء نظام آلي لتصنيفها وفقًا لمعايير محددة تسهّل استخدامها في العلاج النفسي.

٣– إجراء دراسات تجريبية تطبيقية على مرضى في سياقات علاجية مختلفة، لتقييم مدى فعالية التصنيفات الموسيقية الجديدة ومدى توافقها مع الحالات النفسية للمتلقين في المجتمعات العربية.

٤– تعزيز التعاون بين المختصين في الموسيقى والعلاج النفسي من خلال فرق بحثية مشتركة تجمع بين الموسيقيين والمعالجين النفسيين والباحثين في العلوم الإدراكية، لضمان تكامل الجوانب الفنية والعلاجية.

٥– تطوير برامج تدريبية متخصصة للعاملين في مجال العلاج بالموسيقى، تركز على كيفية توظيف التصنيفات الموسيقية في العلاج وفق منهجيات علمية دقيقة.

٦– إدماج الموسيقى العلاجية المصنفة رقميًا في المؤسسات الصحية من خلال برامج رسمية في المستشفيات والمراكز

النفسية، بهدف تعميم استخدامها وتعزيز دورها كأداة مساندة في العلاج النفسي.

تمثل هذه التوصيات خطوة نحو تطوير مقاربة علمية متكاملة للعلاج بالموسيقى في البيئات العربية، بما يتيح استثمار التراث الموسيقي المحلي بأساليب مبتكرة تلبي احتياجات الأفراد والمجتمع.

*** المراجع**

اولاً- المراجع العربية

Kate Hevnerعالمة نفس أمريكية رائدة في تطوير أساليب إدراك المشاعر والأمزجة التي تثيرها الموسيقى... ابتكرت في هذا السياق "عجلة المزاج" سنة ١٩٣٦ المستعملة بعد ذلك في طريقة العلاج بالموسيقى "الخيال الموجة والموسيقى".

للاستماع إلى المثال الموسيقي O be ye most heartily welcome يرجى الدخول إلى الرابط التالي:

https://www.youtube.com/watch?v=HiABxbvQj7E

طريقة (KMR) هي طريقة تحوي خمس مراحل: حوار، استرخاء، استماع إلى الموسيقى، تعبير فني، رحلة استكشاف الصور... (Wärja, Bonde, p14).

للاستماع إلى المثال الموسيقي Mercy Street يمكن الدخول إلى هذا الرابط:

https://www.last.fm/music/Peter+Gabriel/The+Round+Ones/Mercy+Street+(New+Blood+Version+Instrumental)

مثال لإحدى المدارس أو مراكز التدريب التي تمنح شهادة كفاءة في تصنيف واختيار الموسيقى العلاجية:

https://www.integrativegim.org/supportive-music-and-imagery

للاستماع إلى المثال الموسيقي دمي ودموعي وابتساماتي يمكن الدخول إلى هذا اللرابط:

https://www.youtube.com/watch?v=9NTO1Gd8F_

الزواري، عماد. العلاج بالموسيقى بين التنظير والممارسة الميدانية. ٢٠٢١. رسالة بحث لنيل شهادة الدكتوراه في الموسيقى والعلوم الثقافية. المعهد العالي للموسيقى بتونس.

ثانياً- المراجع الأجنبية

Bonde, LO. eds. 2010, Music as support and challenge - group music and imagery with psychiatric outpatients. Jahrbuch Musiktherapie/Music Therapy Annual. Vol 6: 89-118.

Bonde, LO. 2005. The Bonny method of guided imagery and music (BMGIM) with cancer survivors. A psychosocial study with focus on the influence of BMGIM on mood and quality of life. (PhD. Aalborg University).

Fuglestad, (Sevin). New Blood: A contemporary GIM programme, Approaches: An

Interdisciplinary Journal of Music Therapy. Special Issue 9 (2) ,2017.

Hevner, (K). (1937). Experimental studies of the elements of expression in music. American Journal of Psychology.: 48.

Vaillancourt,(Guylaine). 2012.A music therapist in music therapy, Or when the client is a music therapist!, Canadian Journal of Music Therapy, 18(1), 25, 19p.

Wärja, (M). Bonde, (L. O). (2014). Music as co-therapist: Towards a taxonomy of music in therapeutic Music and Imagery work. Music and Medicine. 6(2), 16-27.

Wheeler, (B). 1983. A psychotherapeutic classification of music therapy practices: A continuum of procedures. Music Therapy Perspectives.: 1(2).

Wigram, (T). Pedersen, (I. N). Bonde, (L. O). (2002). A Comprehensive Guide to Music Therapy: Theory. Clinical Practice. Research and Training. London: Jessica Kingsley Publishers.